دراسات وبحوث:

دراسة نقدية لمقالة: "هل القرآن يَنفي أو يُثبِت صَلْبَ المَسيح وموته؟"[1]

السيد حمزة جعفر[2]

ملخّص

تتناول هذه المقالة ترجمةً ونقدًا لمقالة من تأليف المستشرق (سليمان مراد)، وردت في كتاب "وجهات نظر جديدة حول القرآن - القرآن في سياقه التاريخي - الجزء الثاني"، حيث يتناول الآيات المتعلِّقةَ بصَلْب المَسيح عليه السلام ويَربطُها بآيات أخرى، ويَستنتج من هذا الربط بعضَ النتائج من قبيل أنَّ القرآن نَصَّ على أنَّ المسيحَ عليه السلام لم يمُتْ، بل هو حيٌّ عندَ الله، كما هو حال الشهداء الذين لا يَصِحُّ أن يُقال عنهم إنَّهم أمواتٌ رغم أنهم قُتلوا. كما أنّه يرى في قوله تعالى (شُبِّهَ لَهُمْ) معنًى غيرَ السائد، مُستنكرًا على من قال بإلقاء شَبَه المسيح على شخص ما. وفي نهاية المطاف يُبرِزُ نتيجةَ بحثه مُعتبرًا أنّ المسيح عليه السلام صُلِبَ وماتَ على الصَّليب، ولكنَّه حيٌّ عند الله. وفي مقام نقد أطروحة (مراد) سنُحاول تبيين الصُّورة الأشملِ من خلال توضيح السَّقَطات اللُّغوية والمنهجية للكاتب، وكذلك تَجاوُز الكاتب للكثير من الآيات الكريمة التي تُبطِلُ ما ادَّعاه من أفكار، لنخلص بنتيجة أنّ القرآن يقول صريحًا بأنَّ المسيحَ عليه السلام لم يُصلَبْ ولم يُقتَلْ، وأنَّ إلقاءَ الشَّبَهِ على غيرِه أمرٌ مُمكِنٌ بل راجح؛ لأن ثمّة حكمةً فيه وحُجّةٌ على من اتَّخذ عيسى عليه السلام إلهًا.

الكلمات المفتاحية:

عيسى، المسيح، صَلْب، عقيدة الفِداء، القرآن في سياقه التاريخي، سليمان مراد، المستشرقون.

---

1 - المقالة تأليف سليمان ع. مراد (Suleiman A. Morad)، موجودة تحت عنوان: "Does the Qur'an deny or assert Jesus's crucifixion and death?"، في كتاب: «وجهات نظر جديدة حول القرآن - القرآن في سياقه التاريخيّ (الجزء الثاني)»؛ (New Perspectives on the Qur'an; The Qur'an in its historical context 2)، ص.ص. 349-357.

2 - طالب دكتوراه تفسير وعلوم القرآن - جامعة آل البيت العالمية - قم المقدسة.

نبذة مختصرة عن الكتاب والكاتب

المقالة التي نحن بصدد ترجمتها ونقدها نُشرت في كتاب هو: «وجهات نظر جديدة حول القرآن - القرآن في سياقه التاريخيّ - الجزء الثاني» صادر عن دار النشر البريطانية الشهرية والعريقة «Routledge»، والكتاب هو الجزء الثاني لكتاب «القرآن في سياقه التاريخي»، الذي تمَّت ترجمتُه ومناقشةُ أفكاره وتفنيد الكثير منها من قِبَلِ العديد من أهل الاختصاص من المسلمين؛ إذ كان يحمل في طيّاته الكثيرَ من الأفكار التي يتمُّ تَسويقُها ضمن أجندات بِعَيْنها، والجزء الثاني من الكتاب شبيهٌ بالأوَّل، إلا أنَّنا لم نقف على ترجمة له، فضلاً عن ردٍّ على ما ورد فيه. والكتابُ مؤلَّف من عشرين مقالةً، في مواضيع استشراقية مختلفة، لعدد من الكتّاب، ويقع في أكثر من 280 صفحة في خمسة فصول، وهي:

1 - أسلوب الدراسات القرآنيّة.

2 - القرآن والأدلَّة الماديّة.

3 - مفردات القرآن.

4 - القرآن في سياقه الدِّينيّ.

5 - القرآن وأدب الكِتاب المقُدَّس.

وقد سبق أن ترجمنا ونقدنا ثلاثَ مقالات منه وهي:

1 - الحروف المقطَّعة وسماتُ بنيويّة أخرى للقرآن في ضوء النصوص الدينيّة اليونانيّة والبابليّة.

2 - الفرعون القرآنيّ.

3 - بنات لوط في القرآن: نظرة عبر عدسة التَّقابُل النصِّيّ.

وأمّا الكاتب فهو (سليمان علي مراد)، بدأ رحلته التعليمية في الجامعة الأمريكية في بيروت

(AUB)، حيث انتقل من تخصُّص الرياضيات إلى قسم التاريخ، للتعمُّق في تاريخ الشرق الأوسط، فشملت دراستُه في «الجامعة الأمريكية في بيروت» موضوعاتِ «التاريخ الوسيط» و «ما قبل الحداثة» و «التاريخ الحديث للشرق الأوسط»، و «الثقافة الإسلامية»، و «علم المُصنَّفات»، و «الفكر الديني»، وغيرها ... ثم في عام 1996م انتقل إلى الولايات المتحدة لمتابعة درجة الدكتوراه في «جامعة ييل»، حيث استكشف الدراسات العربية والإسلامية، بما في ذلك الفلسفة، وعلم اللغة، وتفسير القرآن، والشريعة الإسلامية، كما أنَّ له خبرةً تدريسية في هذه الحقول، إضافةً إلى حصوله على باقة من الجوائز والمِنَح من معاهد بحثية غَربيّة مَرموقة.

مقدِّمة

الاعتقادُ في نبيِّ الله عيسى المسيح ابن مريم (عليهما السلام) من القضايا الخلافيّة الأساسيّة بين الأديانِ السَّماويةِ الثلاثة، فأتباع المسيحيّة يعتقدون أنّه صُلب وماتَ ثم قامَ، واليهودية تَنفي نبوَّتَه من الأساس، والإسلام يَعتبِره نبيًّا رسولاً، ويُنكِر الصَّلْب والقَتل، ويؤكِّد بأنّ الله نَجّاه من المكيدة التي حِيكَت لِقَتْله.

وتقع مسألةُ صَلْب المسيح عليه السلام وقيامته في قلب المنظومة العقائدية للديانة المسيحية؛ إذ بَنَت عليها سَرديّةً كاملة على أساس الانطلاق من أنَّ المسيحَ قد صُلِب للتكفير عن خطيئة موروثة من آدم عليه السلام إلى يوم القيامة[1]، وفي السياق التَّبليغيِّ الدَّعَوي نالت هذه المسألة اهتمامَ باحثين مسلمين، مُستعينين في ذلك ببعض الآيات التي تَضَمَّنَت هذه المسألة، وصاحب المقالة (سليمان مراد) قد عرض بعضًا من أفكار التراث الإسلامي وأدلته من آيات وروايات، تناولَت مسألةَ صَلْب المسيح عليه السلام، إلا أنه أهمل -جهلاً أو تجاهُلاً- بعضَ الآيات والأدلة الأخرى التي تَبني صورةً مُتكاملة صحيحةً كأساس لموقف الإسلام الدَّقيق من هذه القضية، وعليه، سيكون النِّقاش حول استدلال الكاتب بالآيات القرآنية، ومحاول تبيين الأخطاء المَنهجية واللغوية التي وردَت في مقاله.

1 - سيد قطب: في ظلال القرآن، ج3، ص1273.

يذهب (سليمان مراد) في مقاله إلى أنَّ القرآن يُثبت صَلْبَ المسيح وقتلَه معًا، ويدَّعي أنَّ المفسِّرين المسلمين قد اضطرُّوا إلى القول بأنَّ المسيح لم يُصلب ولم يُقتَل، دفعًا لشبهة أنَّ الله -عزّ وجلّ- لم يَنصُرْ رسولَه وتركَه يَموتُ على يدِ أعدائه، ويدَّعي أنَّ القرآن لم يَنفِ الصَّلْبَ والموت إلا لأنَّ الاعترافَ بِقَتْلِ المسيح من شأنه أن يُظهر الله -عزّ وجلّ- خاذلاً لِرُسُلِه - تعالى الله عن ذلك- ممّا سيُثَبِّطُ معنوياتِ المُنتَسِبين إلى الإسلام، حديثِ الولادة (أي في زمن نزول القرآن).

ومن أجل تناوُل أفكار (مراد) بالتَّحليل والنَّقد سنتطرَّقُ إلى الأفكار الرَّئيسية للشُّبهات التي بُثَّت في مقالته، وذلك عبرَ تقديم أهمِّ المُقتطَفات من نصِّ مقالتِه، والتَّوقُّف عند الشبهة ومحاولة تفكيكها ونقدها، والإجابةِ عن التَّساؤُل حولَ ما إذا كانت منهجية (مراد) دقيقةً علميًّا؟ وهل أتى بشيء جديد على مستوى الأفكار أو طريقة الاستدلال؟

أولًا: دعوى عدم إمكانية موت الإنسان مرّتين

يقول الكاتب: «على الرَّغم من أنَّ العلماء المسلمين قد رفضوا بشكل كبير صَلْبَ المسيح، إلا أنَّهم مُنقسِمون حول حقيقة مَوته. وقد ناقش عدد من أبرز المفسِّرين المسلمين الأوائل احتمالَ أن يكون المسيح قد مات بالفعل ثمّ بُعِث بعد الموت، وقد أصبح هذا الرأيُ رأيًا أساسيًّا في التقليد الإسلاميّ. وهذا -من ناحية- يُظهر أنَّ الطريقة التي عَرَضَ بها القرآنُ قصّةَ صَلْب أو موت المسيح تفتح المجالَ أمام ظهور تفاسير متضاربة؛ ومن ناحية أخرى، أنَّ الرأي الذي يُنظَر إليه على أنَّه موقف الإسلام الرسميِّ تتبنّاه بعضُ دوائر البحث المُسلِمة وغير المسلمة بسبب تحدُّره من الجدال المسيحيّ - الإسلاميّ ...

في آية: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسى...﴾، تكمُن الصعوبةَ في تركيب عبارتيَ: 'مُتَوَفِّيكَ' و'رَافِعُكَ إليَّ'، كما هو مشهود في النقاش العلميِّ الإسلاميِّ حولَ معنَيَيْهما. وقد قدَّم المفسِّرونَ تفاسيرَ مختلفةً لهما، فيَرى بعضُهم أنَّ القرآن يقول: إنَّ الله جعل النَّومَ يَغلب على المسيح، ومِن ثَمَّ رفعه إليه، فيُصبح معنى التَّوفي 'مُتَوَفِّيكَ': 'غلبةَ النَّومِ'. بينما يقول بعضُ آخَرُ بأنَّ كلا العبارتَين يُشير إلى نَقلِ المسيح من هذا العالَم إلى العالَم الآخر من دون موت. وحسب رأي ثالث، تُشير كلمة "مُتَوَفِّيكَ" إلى موت المسيح في المستقبل، وأنَّه يَنبغي ألّا تُفْهَم الكلماتُ في الآية المذكورة،

وما يترتَّب عليها من دلالات، على أنها تتبع تسلسُلاً زمنيًّا طبيعيًّا؛ لذلك، سيقومُ اللهُ برفعه أولاً إلى الجنّة، ومن ثَمَّ سيُنزِلُه إلى الأرض في المستقبل حين وفاته. إلا أنَّه ثمّةَ رأيٌ رابع يقول بأنَّ العبارات تُشير إلى موت المسيح جسديًّا وإلى أنَّ الله بعثَه من الموت، وكلا الحدثَين قد حصلا في الماضي.

إنَّ المروِّجين للآراء الثلاثة الأولى قد عبرَّوا عنها في ضوء اعتقادهم أنَّ الله ما كان أو ما كان ينبغي له أن يذرَ أعداءَ المسيح يقتلونه، فسياق الآيتَين (157 و158) في سورة النساء يُشير إلى أنَّ ادِّعاء صلب المسيح وقتْله كان من قِبَل مجموعة من اليهود، (ولكن ليس معلومًا إن كان يُشير إلى زمن المسيح أو إلى مجموعة يهوديّة ادَّعت هذا الأمر زمن محمد ﷺ). لذلك كانت محاولاتهم تصبُّ في دَفعِ احتمال أن اللهَ لم يُنجِ المسيح.

قال بعضُ المفسِّرين المسلمين إنَّ الله منعَ موتَ المسيحِ بالفعل عبر تدخُّله ورفْعه إلى الجنّة. إضافةً إلى ذلك، فإنَّ الفكرة القائلة بأنَّ المسيح قد نُقِل من هذا العالم من غير موتٍ جسديٍّ يَدعَمُها حديثٌ نبويٌّ، يذكرُ عودةَ المسيح في آخر الزمان لقتل الدَّجّال، وبعد ذلك سيَموت وسيَدفنه المسلمون. بالتالي، لا يُمكِنُ أن يكون هناك موتٌ سابق على ذلك، لأنَّه لا يُمكن لإنسان أن يموت مرَّتين (لأنَّ الله خلقَ البشرَ، ويُميتُهم، ثم يَبعثهم) راجع الآية: ﴿**وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا**﴾ [مريم: 33]، وبناءً على ذلكَ يُمكِنُ للمسيح أن يموت مرة واحدة، وهذا الموت سيكون في المستقبل.

إذن، يقول الكاتبُ إنَّ الإنسانَ لا يموت إلا مرةً واحدةً، بانيًا على ارتكاز لديه لم يُبيِّن أصلَه، ويَتعاطى مع الأمر وكأنه مفروغٌ منه، وخلافَه مُحالُ الوُقوع، ويَستشهد بالآية الكريمة: ﴿**وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا**﴾ [مريم: 33]، فهل حقًّا لا يُمكِن للإنسان أن يموتَ إلا مرّة واحدة؟

الجواب: أن هذه المُسلَّمةَ التي ادَّعاها (مراد) غيرُ ثابتة في الاعتقاد الإسلامي، بل وردَ عكسُها في عدة آيات صريحة، تتحدَّث عن بشر -بل حتى حيوانات- ماتوا وأُعيدوا إلى الحياة:

✷ ﴿**أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ... وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا**

ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 259].

✸ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ... قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: 260].

✸ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ...﴾ [البقرة: 243].

✸ ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 72-73].

✸ ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 55-56].

✸ ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ... وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ...﴾ [آل عمران: 49].

✸ ﴿إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ ... وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي...﴾[المائدة: 110].

بل إنَّ القرآن الكريم يُصرِّح في مواضع أخرى بشكل واضح أنَّ أصنافًا من الناس يموتون مرَّتين، كما في قوله تعالى حكايةً على لسان الكافرين حين يدخلون النار: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: 11].

إذن، بهذه الآيات المباركات يَرتفعُ محذورُ تكرُّر الموت على الإنسان، ويجعله أمرًا ممكنًا، وذلك بعد ثبوت حصوله، ويضع في بقعة الإمكان أن يكون نبيُّ الله عيسى عليه السلام قد ماتَ فعلاً عندما نجَّاه الله من قومه ورفعه إليه، ليعود إلى الحياة في المستقبل. ويقول الكاتب إنَّ المسيح صُلب وقُتل ولكنَّه لم يمتْ، وأنَّه حيٌّ عند ربِّه (مثل الشهداء)، وأنَّ مَن شُبِّه لهم هذا الأمر، (أي التبس عليهم إدراك هذه الحقيقة)، هم مَن يقولون إنَّه ميِّتٌ بسبب عدم ادراكهم لحقيقة أنَّ عيسى عليه السلام حيٌّ عند الله (الحياة البرزخية)، كما أنَّ لفظة «مُتوَفِّيكَ» تدلُّ على موت عيسى كما هو ظاهر اللفظ القرآني، لذلك فهو صُلب ومات، ثم أُعيد إحياؤه (حياة برزخية) عند الله (مثل حياة الشهداء عند ربهم).

الجواب: إنَّ حصر معنى «مُتوفِّيكَ» بالموت فيه تكلُّف وترجيح لمعنى دون آخر من غير مُرَجِّح؛ حيث إنَّ مراجع اللغة تتَّفق على أنَّ تعريف لفظة "وفاة" تعني إتمامَ الشَّيء، أو أخْذَه بتمامه، وهي أعمُّ من الموت، مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُم بِالَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 60]، لذلك لا يَصِحُّ تقديم معنًى على آخر من غير قرينة؛ فلا السياق يدلُّ على أنَّ المعنى هو الموت، ولا توجد قرينة تدلُّ عليه، بل قد يُقال إنَّ السِّياقَ سياقُ بيان خيبة اليهود الذين أرادوا قتل المسيح ﷺ، وكيف أنَّهم مكروا ومكرَ الله وهو خير الماكرين، فأنبأ اللهُ نبيَّه عيسى ﷺ بمكر أعدائه، وأخبره كيف أنَّه سيُنجيه منهم، والسِّياقُ كالتالي: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ...﴾ [آل عمران: 54-55]، ومن السِّياق الذي يُعضِّد هذا المعنى هو ذيل آية يَنفي فيها الصَّلْبَ، فيقول: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 158]؛ فالله عزيزٌ لا تناله مَعصِيةُ خَلْقه، وأولياؤُه بِعِزِّه يَعتزُّون، فلا تَنكسِرُ نفوسُهم أمامَ الصِّعابِ، وهو حكيم يَفعل الصَّواب إزاء مَن يعانِدُه ويُحارِبُ رُسُلَه.

وقد يُقال إنْ كانت كلمة «مُتوفِّيكَ» هنا لا تدلُّ على الموت، فعلَامَ تدلُّ؟ وإن كانت «الوفاة» هنا بمعنى أخْذه بتمامه واستيفائه، فما معنى «رافِعُكَ إليَّ» حينئذٍ؟ أليس من الأنسب أن يكون المعنى: إنيِّ مُتوفِّيكَ أيْ مُميتُكَ، ومن ثَمَّ رافِعُكَ إليَّ؟

والجواب: الوفاةُ هنا متعلِّقة بنَفْسِ المسيح ﷺ الشَّريفة، و «رافِعُكَ إليَّ» تُشير إلى الجسد، والدليل عليه الآيات التي تتحدَّث عن وفاة النَّفس حين النَّوم: ﴿وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُم بِالَّيْلِ...﴾ [الأنعام: 60]، ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ...﴾ [الزمر: 42]، ما يتوفَّاهُ اللهُ هو النَّفسُ، والجسدَ يَبقى مكانَه كما هو معلوم. فبَعدَ استيفاء الله لنفس عيسى ﷺ، جاءت لفظة «رافعك إليَّ» للإشارة إلى جسد عيسى ﷺ الشَّريف، أي إنَّ الله رفعَ عيسى ﷺ إليه نفسًا وجسدًا، فلا يُمكِنُ القولُ إنَّ الرَّفع هو أيضًا للنَّفس بعد أن تمَّ استيفاؤها بشكل تامٍّ عند الوفاة، فلَزِمَ أن يكون الرَّفع متعلّقًا بأمر غير النفس، ألا وهو الجسد. (وهذا يُثبت المطلوب).

ثانيا: دعوى نفي إمكانية تشبيه شخص بآخر

يقول الكاتب: «... ولكنَّه يُوجد توافُق على رفض فكرة حصول الصَّلب للمسيح، على الرغم من أنَّ المفسرين المسلمين قد قدَّموا تفاسير مختلفة عمّا حدث بالفعل. إنَّ الرأي الأشهر هو أنَّ الله جعل شخصًا آخر يَبدو كالمسيح، وهو الذي صُلِب (وهنا أيضًا اختلاف حولَ هوية الشخص)، يوجد تفسيرٌ أقلُّ شهرةً يقول بأنَّ أحد تلامذة المسيح قدَّم نفسَه اختيارًا ليُصلب بدلاً منه، (وقد تمَّ تَحويلُه ليُشبه المَسيح)، ولكن حتى أشهر الآراء كان له نصيب من الإشكاليات، لأنَّه حسب بعض المفسِّرين لا يمُكِن تبنِّي النَّتائج العقديّة المترتِّبة على هذا الرأي.

على سبيل المثال، يرفض الفيلسوفُ الرازي (ت 606هـ/1210م) في تفسيره للقرآن احتِمال أن يكون الله جعل شخصًا آخَرَ يَبدو كالمَسيح، لأنَّ من شأن ذلك أن يُؤدِّي في نهاية المطاف إلى الشكِّ في صِدقيّةِ كلِّ شيء، حتى الإيمان، لأنّه كيف يمُكِن أن نكون متأكدين من شيء إذا كانَت حقيقتُه مغايرةً لظاهره؟

ولكنَّ الحديث المذكورَ وردَ في أدبيّات الجدال ضدَّ المسيحيّة، ومن المفترض أن يكون تكلَّمَ به محمد [صلى الله عليه وآله وسلم] عندما أتاه وفدٌ مَسيحيٌّ من نجران، وناقشوه في موضوع صَلْب المسيح. وقد دَحَضَ النبيُّ قولَهم عبرَ الإشارة إلى عودة المسيح، [...] وبعد رفض فكرة أنَّ المسيح قد قُتل، يأتي دورُ تفسير عبارة 'شُبِّهَ لَهُم'. إنَّ هذه العبارة تَعني جعلَ شيء ما يظهر لهم على صورةِ شَيْءٍ آخَرَ، ولكنَّه في الجوهر غير صحيح. هذا التعبير لا يَعني بالضرورة جعلَ أحَدٍ يُشبِهُ أحَدًا آخر، كما هو الفَهم السائد. إنَّ القرآنَ استخدم كلمات مشتقّة من الأصل نفسه – ش ب ه- للإشارة إلى الإلتباس والغموض كما في قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ...**﴾ [آل عمران: 7].

ومن الواضح حسب الاستعمال القرآنيِّ أنَّ معنى 'شُبِّهَ لَهُم' ليس محصورًا بالالتباس في الرؤية، فقد يُطلَقُ على شيء إذا كان الفَهمُ الحرفيُّ له سيُؤدِّي إلى الالتباس والخطأ. وعليه، برأيي، لا معنى للآية 157 من سورة النساء إلا إذا كانَت تُشير إمّا إلى فِعل (القتل أو الصلب) وإمّا إلى المسيح. من السخيف افتراضُ أنَّ العبارة تُشير إلى أنَّ شخصًا صار يُشبِهُ المَسيح وتمَّ صَلْبه؛ لأنَّها تُشير بوضوح إلى شخص أو شيء سبق وذُكر في الآية، وهنا لم يُذكر سوى فعل (القتل أو

الصلب) والمسيح. ومن السخيف أيضًا القولُ بأنَّ المسيح هو مَن صار يُشبه شخصًا آخرَ. إذن، لا يبقى أمامَنا سوى تفسيرَين مُحتملَين لـ'شُبِّهَ لَهُم' في هذه الآية: إمَّا أن تكون العبارةُ تُنكِر حقيقة حدوث الفعل، وإمّا أنَّها تُنكر أنَّ المسيح مات جرّاءَ صَلْبه.

ثمّ تُكملُ الآية 157 من سورة النساء: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ [النساء:157]. هنا أيضًا كلمة "فِيه" لا يُمكِنُ أن تكون إشارةً إلى الشخص الذي صُلِب بدلًا من المسيح؛ لأنَّ ذلك يَجعلُ القرآن في موقف يُنكِر فيه أن يكون أحدٌ صُلب مكانَ المَسيح. لا يُمكِن فَهْمُ ما تبقَّى من الآية 157 من سورة النساء إلا على أنَّه تأكيد إضافيٌّ، أي ما بَدا لهم (هؤلاء الذين يدَّعون قتلَ أو صَلْبَ المسيح أو هؤلاء الذين يعتقدون أنَّ المسيح قُتل أو صُلب) هو عبارة عن خطأ في الإدراك. ويتَّضح كلُّ هذا مع العبارة التالية: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾. بعبارة أخرى، المقصود هو أنَّه يُمكِن لأحد أن يظنَّ أن المسيح قُتل، ولكنَّه لم يُقتل لأنَّه بُعِث بعد الموت وهو حيٌّ عند الله. أي من أجل أن يُعتبر أحد ما أنَّه مَقتول فيَنبغي أن يبقى ميتًا! لذا، هؤلاء الذي يُؤكِّدون أنَّ المسيح قُتل عبرَ الصلب بناءً على ما شاهدوه هُم في الحقيقة مخطئون.

لذلك، أقترح الترجمةَ التاليةَ للآيتَين 157 و158 من سورة النساء: 'وقولهم: "إنَّا قتَلْنا المَسيحَ ابنَ مَريمَ رَسولَ الله». لا، ما قتَلوهُ عبرَ صَلْبه. بل هُم ظنُّوا ذلك، وهؤلاء الذين يُؤكِّدون ذلك لَيسوا متأكِّدين في الواقع، فهم لا يَملِكونَ عِلمًا بالأمر إلا عبرَ الظَّنِّ. بالفعل، لم يَقتلوه لأنَّ اللهَ رفعَه إليه بَعدَ مَوتِه'.[1]، وممّا يدعَمُ هذا التفسيرَ هو مسألة اختلاف الإدراك مع الحقيقة فيما يتعلَّق باعتبار كون شخص حيًّا أو ميتًا، والتي طُرحت عدّة مرات في القرآن. إضافةً إلى الآيتَين 157 و158 من سورة النساء، نجد ذلك في قوله -تعالى-: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: 169].

[...]، كما طُرحت فكرةُ موتِ المسيح في آيتَين أُخرَيَين في القرآن. إلى جانب الآية 117 من سورة المائدة التي استشهَدْنا بها سابقًا، ذُكرت مسألةُ مَوتِ المَسيح في قوله تعالى: ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: 33]؛ فبِخلاف الآياتِ السابقة، فإنَّ هذه الآية لا

1 - قد أدرجنا ترجمة ما أورده الكاتب عمدًا لتبيان النتيجة التي توصّل إليها. (المترجم)

تَلفتُ نظرَ المفسِّرين المسلمين على الرغم من أنَّها تَطرح فكرةَ مَوتِ المَسيحِ، فالغالبية لا تَربطُ بينَ عبارة "يَومَ أمُوتُ". وعودة المسيح في المستقبل، ولكنَّهم عادةً ما يَميلون إلى مناقشة مسألة عودةِ المسيح عند تفسير الآية 55 من سورة آل عمران[1].

ووَفقًا للعالِمِ المُسلِمِ القَديمِ المختصِّ بالرِّوايات التَّوحيديّة وهب بن منبّه (ت 110هـ/ 728م)، فإنَّ القرآنَ هنا يَقتبسُ كلامَ المسيح عندما كان يُخبرُ أتباعَه أنَّه على وشكِ المَوتِ، ومِن ثَمَّ البَعث. إضافةً إلى ذلك، إذا ما صحَّ أنَّ المقصود من الإشارة إلى موت المسيح هو الإشارة في الواقع إلى حدوثه المُستقبليِّ، إذن يجب أن يصحَّ هذا الأمرُ كذلك على يَحيى، الذي قال القرآن عنه بشكل مُشابهٍ لقوله تعالى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: 15]، حيث إنَّ كلا الآيتَين يَستخدم الفعلَ المضارع في مسألة الموت (أمُوتُ/يمُوتُ)، حيث إنّ ضمير المتكلّم المفرَد في الآية يُشير إلى المسيح، وضمير الغائب المفرَد في الآية يُشير إلى يَحيى. إذا كان القرآنُ يقولُ إنَّ المسيحَ لم يمُتْ، كذلك يَحيى لم يمُتْ، وهو ينتظرُ أيضًا أن يمَوت في وقت ما في المستقبل. إلا أنَّ هذا سخيفٌ، لأنَّ يَحيى قد ماتَ في الماضي، بالتالي، فالفعل المضارع لا يُشير بالضَّرورةِ إلى موتٍ مُستقبليٍّ، وهذه إحدى الخصائص العديدة المميِّزة للغة القرآنية».

خلاصة قول الكاتب إنَّه من «السخيف» القولُ بأنَّ الله جعلَ شخصًا ما يُشبهُ المسيحَ (عليه السلام)، وأخذوه مكانَه وصلبوه، بناءً على أنَّ "شُبِّهَ لَهُمْ» لا تعني بالضَّرورة هذا المعنى بالتَّحديد، فقد تَعني الخطأ في الإدراك، كما استندَ إلى قول الرازي باستحالة هذا الأمر كونه سيؤدِّي إلى الشكِّ في كلِّ شيء وضياع الحقِّ والحقيقة. وقال بأنَّ "شُبِّهَ لَهُم" تُشير في سياقها إلى شخصٍ أو شيء ما سبقَ ذِكرُهُ في الآية، مع ترجيح الثانية (أنَّ المشبه له هو شيء/قضية)».

الجواب: لم يأتِ المفسِّرون بفكرة جعل أحد ما يُشبهُ المسيحَ عليه السلام من تلقاءِ أنفسهم، بل هو مضمون روايات متعدِّدة وردَت، وإنَّما اعتبرَه الكاتبُ «سخيفًا» لغلبة الفكر الماديِّ عليه كما هو حال جلِّ المستشرقين الذين لا يُعطون أيَّ قيمة للأحاديث الشريفة التي فيها مضامين غَيبيّة أو غير مألوفة للعقل الغربي الماديِّ.

---

1 - ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

أمّا قول الرازي الذي جاء به لدعم فكرته فهذا نصُّه: «السُّؤال الثاني: أنَّه إن جازَ أن يُقال: أن الله تعالى يُلقي شَبَهَ إنسان على إنسان آخَرَ فهذا يَفتحُ بابَ السَّفسطة؛ فإنّا إذا رأينا زَيدًا فلعَلَّه ليس بزيدٍ، ولكنَّه ألقى شَبَهَ زَيد عليه، وعند ذلك لا يَبقى النِّكاحُ والطَّلاقُ والمُلك، موثوقًا به، وأيضًا يُفضي إلى القَدحِ في التواتُرِ، لأنَّ خبرَ التَّواتُرِ إنمَّا يُفيدُ العِلمَ بشرط انتهائه في الآخرة إلى المَحسوس، فإذا جوَّزنا حصولَ مثلِ هذه الشّبهة في المَحسوسات توجَّهَ الطَّعنُ في التواتُر، وذلك يُوجب القَدحَ في جميع الشَّرائع، ... وبالجُملة ففتح هذا الباب يُوجب الطَّعنَ في التواتُر، والطَّعنُ فيه يُوجب الطَّعنَ في نبوة جميع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، فهذا فرع يُوجب الطَّعن في الأصول فكان مَردودًا»[1].

ويَعتبر أتباعُ مذهب أهل البيت أن في كلام (الرازي) مبالغةً وتضخيمًا غيرَ مُبرَّرَينِ لأمر إلقاء شبه شخص على شخص آخر؛ فتشبيه شخص بآخر مرّةً واحدةً في التاريخ وفي حادثة محدَّدة جدًّا، إضافةً إلى إخبار الله -تعالى- بحدوثها، لا يؤدِّي إلى كل هذه الأمور من تَهديم للشرائع وتكذيب للأنبياء! فقد صوَّر (الرازي) الأمرَ وكأنَّه مُمكِنٌ ادِّعاؤه لأيٍّ كان، وأنَّه في أي لحظة يمُكِن لأيِّ أحَد أن يُلقَى عليه شَبَهُ شخص آخر من غير إرادته. كذلك، فإنَّه بفرض صحّة ما ورد في الأخبار من أنَّ شخصًا صار يُشبه المَسيح ﴿عليه السلام﴾، فإنَّ هذا حصل بإذن الله -تعالى-، أي هو فعلُ حكيم غيرُ اعتباطيٍّ ومعلوم النتائج والاستلزامات، وفاعلُه سبحانه مُحيطٌ بتبعاته كافّةً، مثل التصرُّف بأبصار الكافرين الذي يَعتبره القرآنُ من نصر الله لعباده المؤمنين، كما في قوله -تعالى-: ﴿**قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاء إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الأَبْصَارِ**﴾ [آل عمران: 13]؛ فإنَّه يُثبتُ تصرُّف الله تعالى بأبصار الناس لغايات لديه، ومنها تأييد المؤمنين بنصره، ومثل قوله تعالى: ﴿**إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ**﴾ [الأنفال: 43-44]، الذي يُشير إلى التصرُّف بالأبصار وتَشبيه ما يراه المؤمنون والكافرون على حدٍّ سواء على خلاف الواقع المَوجود، فليس

1 - الفخر الرازي: التفسير الكبير، ج11، ص.ص. 99-100.

هناك من مَحذور إذًا في تصرّف الله عز وجل بأبصار المتُآمرينَ على قتل عيسى (عليه السلام)، خصوصًا أنَّه من المعلوم أنه (عليه السلام) قد أخبر خواصَّ أنصاره أنَّ الله سيُنجيه من مكيدة الأعداءِ حتى لا يَتزلزلَ إيمانُهم إذا ما رأوا شبيهَ عيسى (عليه السلام) مَصلوبًا مَقتولاً.

ويُمكِن أن تُطرَحَ فرضيةٌ تقول: ماذا لو كان الله عز وجل نجَّى عيسى (عليه السلام) بشكل واضح ورفعَه إليه، وعَلِمَ الصَّديق والعدوُّ أنّ عيسى قد نجّاه الله بمعجزة من عنده؟

الجواب: أنَّ المرُتكَز حاليًا لدى المسيحيِّين أنَّ عيسى (عليه السلام) صُلب وقُتل، ومع ذلك ألَّهوه وعبَدوه وجعلوه ابنًا لله -عز وجل-، فثمَّة فائدة لطيفة وحِكمة خفية وحجّة بالغة في إيجاد هذا المرُتكز الذي حصلَ نتيجة إلقاءِ شَبَه عيسى (عليه السلام) على غيره، وهو أنَّه: أيَّها النَّصارى، كيف اتَّخذتُم عيسى (عليه السلام) إلهًا وأنتم تقولون بأنّه قُتل وصُلب؟ وليس من شأن الإله أن يَموت!

وقد حاول الكاتب الاستفادة من الآية 55 في سورة مريم بمُقارنها بالآية التي تُشبهها التي تَحكي عن يحيى (عليه السلام)، كقوله تعالى: ﴿**وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا**﴾ [مريم: 33]، وقوله تعالى: ﴿**وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا**﴾ [مريم: 15]، مشيراً إلى أنَّ الفعل المضارع في "أموت" و"يَموت» يُفيد وقوعَ الفعل في المستقبل، مدَّعيًا «سخافة» القول بعدم مَوتِ يَحيى (عليه السلام) في الماضي بناءً على صيغة المضارع (أَمُوتُ)؛ وعَليه لا يُمكِنُ نفيُ عدَمِ موت عيسى (عليه السلام) بهذه الآية كونها أيضًا في صيغة المضارع.

والجواب: أولاً، يَختلف المتكلِّم في كلتا الآيتين، فالمُتكلِّم في آية عيسى (عليه السلام) هو عيسى نفسُه، وبالرَّغم من أنَّ فعل الموت جاء بصيغة المضارع إلا أنَّ الكلام عبارة عن اقتباس لكلام قالَه عيسى (عليه السلام) عندما كان حديثَ الولادة، تَحملُه أمُّه أمامَ القَوم من بني إسرائيل، الذين استنكروا وتعجَّبوا من أمر مريم (عليها السلام)، وحَمْلها وإنجابها لمولودها من غير زواج، فالكلام هنا حكاية واقتباس، وليس مجرَّد إخبار. بينما الآية التي تحدَّثَت عن يحيى (عليه السلام)، فليست اقتباسًا لكلام قاله أحدٌ ما في الماضي، وإنَّما هو إخبار من الله تعالى، وعليه، يكون المرادُ من يوم موت يحيى (عليه السلام) يومًا واقعًا في المستقبل بعدَ زمن القولِ.

ثانيًا، إذا ما قلنا بأنَّ موتَ يَحيى (عليه السلام) قد حصل فعلاً، فيُمكن أن يكون معنى «يومَ يَموتُ»

أي يوم النَّفخ في الصور[1] وموتِ جميع المخلوقات قُبيل القيامة، فيَحيى عليه السلام شهيدٌ قتلَه مَلِكُ زمانِه كما ورد في التاريخ[2]، والشُّهداءُ أحياءٌ[3] كما نصَّ القرآنُ الكريم، فكيف بالأنبياء عليهم السلام الذين هم أعلى مرتبة من الشهداء، فإنَّما يُعتبرَ الشَّهيد شهيدًا إذا ما كان مَوتُه وقَتْلُه مُتَّبعًا لنبيِّ زمانه أو مَن يقوم مقامَه حتى يصدق عليه أنَّه قُتل في سبيل الله لتُمنَحَ له الحياة عند ربِّه. فكون يَحيى عليه السلام لا يزال حيًّا، يَصِحُّ أن يُقال إنَّ المُراد من «يومَ يَموت» أي عندما يَموتُ قُبَيل القيامة للبَعث.

إذًا، لا يصحُّ أن يقول إنَّ الفعلَين (أموت ويموت) جاءا بصيغة المضارع، مع اختلاف المتكلِّم وزمن وقوع الكلام في الآيتين، فالأول اقتباس لكلام قيل عند ولادة عيسى عليه السلام، أي قبل قضية الصَّلْب والموت والوَفاة والرَّفع، والآخر إخبار إلهيٌّ قيل عند نزول الآية الكريمة أي بعدَ مَوتِ يحيى عليه السلام.

ثالثا: هل القرآن ثبّت على اليهود جريمة قتل عيسى عليه السلام؟

ويُضيف الكاتبُ قائلاً: «ثمَّة نقطة أخيرة يُمكِن إضافتُها هنا، وهي أنَّه يَجبُ فَهمُ الآيتَين 157 و158 من سورة النساء في سياقهما الخاصِّ. بالنهاية، إنَّ إحدى المسائل الأساسيّة المَطروحة في الآيات السابقة -والتي تقع في سياق مباشر مع الآيتَين موضع البحث- اتِّهام القرآن في الآية

1 - ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: 68].

2 - بالإسناد إلى الصدوق، عن ماجيلويه، عن عمه، عن الكوفي، عن عبد الله بن محمد الحجال، عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن هلال، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنَّ مَلكًا كان على عهد يحيى بن زكريا، لم يكفه ما كان عليه من الطروقة حتى تناول امرأةً بَغيًّا، فكانت تأتيه حتى أسَنَّت، فلما أسَنَّت هيَّأت ابنتَها، ثم قالَت لها: إنِّي أُريد أن آتيَ بكِ المَلك، فإذا واقعَكِ فيسألك ما حاجتُك فقولي. (قالت:) حاجتي أن تقتل يحيى بن زكريا عليه السلام، فلمّا واقعها سألها عن حاجتها، فقالت: قتل يحيى بن زكريا، فلمّا كان في الثالثة بعثَ إلى يحيى فجاء به، فدعا بطست ذهب فذبحَه فيها...». (محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج 14، ص181.)

3 - ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 154].

155[1] الإسرائيليِّين/اليهودَ بـ «نَقضهم ميثاقَهُم» و «قَتلِهمُ الأنبيَاء». إذا كان المسيح لم يمُتْ على الصليب، فإذَنْ هذا الاتِّهام – والذي يُقدَّم على أنّه واحدة من عدّةِ تجاوزاتٍ قام بها الإسرائيليُّون/اليهود ضدَّ الله- سيكون مكانه غريبًا، خصوصًا أنَّ نموذج موت المسيح هو الحالة الوحيدة التي تناولَت موتَ نبيٍّ بعدَ ذكرِ الاتِّهام. لذا، يُظهِرُ سياق الآيتَين 157 و158 من سورة النساء أنَّ القرآن لا يُنكِرُ حقيقةَ حدوث صَلْب وموت المسيح، بل إنَّه يقارب مستلزماتهما».

خُلاصة قول الكاتب أن سياق الآيات التي تتحدَّث عن صلب المسيح هو استهجان أفعال اليهود وقَتلهم الأنبياء، وبعد هذا الاتِّهام مباشرةً يأتي على ذكر أنّهم غير مُحقِّين في ادِّعائهم قتلَ رسول الله عيسى (عليه السلام)، ﴿**فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاء بِغَيْرِ حَقًّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلًا وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا**﴾ [النساء: 155-157].

ولكن في قراءة متأنيّة للآيات، لا نرى أنَّ الآيات تُريد اتِّهامَ بَني إسرائيل بقتل عيسى (عليه السلام)، بل نجدها تُعدِّد معاصيَ بني إسرائيل، من نقضٍ للميثاق وكُفر بآيات الله وقتلٍ للأنبياء، وإضافةً إلى هذه المعاصي الفعليّة، نرى أنَّ القرآن الكريم ذكر ثلاثًا من المعاصي القوليّة، وهي:

- قولهم قُلوبُنا غُلْفٌ،
- قولهم على مريم بهتانًا عظيمًا،
- قولهم إنَّا قتلنا المسيحَ عيسى ابن مريم (عليه السلام).

وقد اشتبَه على الكاتب فَهمُ الآية، إذ هي لا تتطرَّق إلى معصية «قتلهم» للمسيح (عليه السلام)، بل تتحدَّث عن معصيتهم في «القول المُفصح» عن جرأتهم على الله -عز وجلّ- وإستخفافهم بدماء وحرمة أنبيائه ورُسله، وهذا يُعدُّ كُفرًا به، كما عدَّ قولهم على مريم (عليها السلام) كفرًا حيث قال -عز وجل-: ﴿**وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ ...**﴾ [النساء: 155]. وتَقديم الكفر على القول إشارةٌ

---

1 - ﴿**فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلًا**﴾ [النساء: 155].

إلى الكفر المُستبطَن، الذي منشؤُه قولُ الزُّور على السيدة الطاهرة مريم (عليها السلام)، وتباهيهم بقتل رسول الله عيسى عليه السلام. فنفسُ التبجُّح بقتل المسيح عليه السلام - بغض النظر عمّا إذا كانوا فعلاً قد قتلوه أم لا - هو معصية مُستقلّة عن فعل القتل نفسه، فإذًا، لا مكان للفكرة التي أوردها الكاتبُ، فالآية لم تتطرَّق إلى قتل بني إسرائيل للمسيح عليه السلام حتى يقولَ بأنّها تَدين بني إسرائيل بقتل نبي الله عليه السلام [1].

خاتمة

ذهب الكاتب بعيدًا في تأويل ما لا ينبغي تأويلُه من ظاهر الألفاظ التي دلَّت على أنّ القرآن يُصرِّح بشكل واضح وجَليٍّ أنّ المسيح عليه السلام لم يُقتل ولم يُصلب، وإنَّ تحويل معنى عدم موتِه إلى ما يُشبه حال الشهداء الذين هم أحياء عند ربِّهم، لا علاقة له بمراد الآية ولا سياقها، ويَحول دون القولِ به المعاني المتبادرة من ألفاظها. كما أنَّ إلقاء الشَّبَهِ ليس بالأمر المُحال عقلاً، بل هو أشبَهُ بتصرُّف الله -تعالى- بأبصار المؤمنين والكافرين على حدٍّ سواء عند التقائهم للقتال، عندما أراهم ما أرادَ أن يُريَهم خلافًا للواقع الخارجيّ. كما أنّه تمَّ دحضُ فكرة أنَّه لا يُمكِن للإنسان أن يموتَ مرَّتَينِ كما ادَّعى الكاتبُ، وبيَّنّا كيف أنَّه أخطأ في فهم الآيات التي استشهد بها، تمامًا كما اشتبَه عليه فَهمُ آية تباهي بني إسرائيل بقتلهم لعيسى رسول الله عليه السلام، حيث لم تكن الآيةُ بصدد تحميلهم وِزرَ قَتله، بل كانَت تُشير إلى جُرأتهم في التَّباهي بذلك، رغم أنَّهم لم يَنجحوا بقتله حقيقةً، بل شُبِّه لهم ذلك. وإنَّ من حِكَم إيهام الناس أنَّ المسيح عليه السلام قد قُتل على الصَّليب أن يُحرِّكَهم نحو تعقُّل أمرِ عقيدتهم الباطلة في ألوهية عيسى عليه السلام، إذ كيفَ يجتمع القولُ بألوهية شخص ما مع الاعتقاد بموته وعدم قدرته على نصرة نفسه وتَخليصها من مخالب أعدائه؟

1 - مـن الجديـر ذِكرُه أنّ هذه الآية قد تُدرَس في بحث التَّجرّي في علـم أصول الفقه، هل إنَّ الله تعالى حمَّل هؤلاء اليهودَ دمَ عيسى (عليه السـلام) وثبَّت عليهم معصية القَتلِ رغم أنّه لم يُقتل في الواقع؟ والإشـارة قد تَنفع المُتخصِّصين، ولكن تفصيل الكلام له محلٌّ آخر.

لائحة المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم

2. الرازي، فخر الدين، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1420هـ.

3. قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، ط35، 1425هـ.

4. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط2، 1403هـ.

5. مصطفوي، حسن، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، نشر وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، إيران، ط1، 1368 هـ. ش.